

رسالة السلطان سليمان القانوني إلى حاكم البحرين د. فيصل عبد الله الكندري

من أهم العقبات التي تواجه الباحثين في العلاقات العثمانية بشبه الجزيرة العربية نقص المعلومات التاريخية، خصوصا وأن سلسلة الأحداث في الأرشفة العثماني الموجودة في أرشفة رئاسة الوزراء Basbakanilk Devlet Arsivleri تنتظم في دفاتر المهمة (مهمه دفترلري) في الفترة المتعلقة بالنصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي إلى القرن التاسع عشر، لذا فإن المصادر العثمانية لا تحدم الباحثين كثيرا عن الفترة السابقة لذلك.

إن معظم الكتب التاريخية التي تناولت علاقة العثمانيين بالبحرين لم تذكر على وجه التحديد تاريخ أول اتصال تم بينهما، إلا أنه من خلال البحث في المصادر العثمانية القديمة تم العثور على رسالة بعث بها السلطان سليمان القانوني لحاكم البحرين مراد خان (أو ريس)، وهذه الرسالة موجودة في منشآت السلاطين التي كتبت من قبل فريدون بك^(١)، الذي كان من كتاب السر في أيام الوزير الأعظم صقلي محمد باشا^(٢)، ويقع الكتاب في جزئين، ويحتوي على مراسلات السلاطين

* مدرس قسم التاريخ - جامعة الكويت

- ١ - ترقى فريدون بك في المناصب حتى وصل إلى كتابة السر، توفي عام ٩٩٠هـ / ١٥٨٢، من أهم المؤلفات التي تركها: نزهة الأخبار وهي تتعلق بمعركة سكتوار، كما كتب رسالة في الأخلاق عرفت باسم مفتاح الجنة (أي مفتاح الجنة) (لزيد من المعلومات انظر: بروسه لي محمد طاهر، عثمانلي مؤلفري، ج ٢، (استانبول، ١٣٣٣) ص ٣٦٤)
- ٢ - يعتبر صقلي محمد باشا من أهم الوزراء الذين تولوا الصدارة العظمى أيام السلطان سليمان القانوني، فصار وزيرا أعظم في عام ٩٧٢هـ / ١٥٦٤م، وشارك الوزير السلطان سليمان في أثناء حملته الأخيرة لحصار مدينة سكتوار Szeged عام ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م، في أثناء الحصار توفي السلطان، فأخفى خبر موته حتى لا يضعف عزم المسلمين عن القتال في المعركة، وأرسل الوزير خلفه ولده سليم الثاني يخبره بالأمر، وانتصر العثمانيون في المعركة. (لزيد من المعلومات انظر: قطب الدين النهروالي، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، (بيروت، بدون تاريخ [ب. ت] ص ٣٠٥-٣٠٦ و ٣٢٤-٣٢٨).

العثمانيين الى غيرهم من سلاطين الدول المجاورة، فضلا عن حكام الولايات والمدن في الدولة العثمانية، وقد كتبت معظم مراسلات السلاطين العثمانيين باللغة العثمانية، إلا أن بعضا منها كتب باللغة العربية وهي التي أرسلت إلى حكام العالم العربي، كما أن هناك بعض المراسلات باللغة الفارسية لحكام بلاد فارس، كما تضمن الكتاب إشارات مختصرة لأهم الحوادث في عهد كل سلطان.

وتعتبر هذه الرسالة على درجة كبيرة من الأهمية، حيث لم يسبق لأحد من الباحثين العرب أو الأجانب الإشارة إليها رغم المعلومات الهامة التي تحويها، لذا فإن هذه الرسالة ظلت منسية، ولم تصلها يد الباحثين منذ أن نشر كتاب فريدون بك في عام ١٢٧٤هـ / ١٨٥٧م.

وهذه الرسالة كتبت باللغة العربية وأرسلت من قبل السلطان العثماني سليمان القانوني لحاكم البحرين، فهي بذلك تعتبر وثيقة عثمانية رسمية تدل دلالة واضحة على تبعية البحرين للدولة العثمانية.

لقد أشارت الوثائق العثمانية الى ورود خطابات عديدة من مراد ريس حاكم البحرين الى السلطان العثماني^(٣)، ولكن مع شديد الأسف لم يعثر على أي من تلك الخطابات، كما أشارت الوثائق العثمانية الى إرسال رسالة من السلطان سليمان القانوني لحاكم البحرين^(٤)، وكان ذلك حافزا لتكثيف البحث من أجل الوصول إلى تلك الرسالة، واستمر البحث حتى تم العثور عليها مطبوعة في الجزء الأول من كتاب فريدون بك المشار إليه، ولمعالجة هذا الموضوع سيتطرق البحث للمسائل التالية: أولا العلاقات العثمانية بجزيرة البحرين والظروف التي دفعت مراد ريس للاستنجاد بالسلطان العثماني.

٣- مهمة دفتری رقم ٣، ص ١٣٩، وثيقة رقم ١.
٤- المصدر السابق، نفس الصفحة والوثيقة.

ثانيا: نشر نص رسالة السلطان سليمان القانوني إلى مراد حاكم البحرين.

ثالثا: أهم ما جاء في الرسالة المذكورة.

البرتغاليون والخليج العربي

بعد اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح عام ١٤٨٨ م، تمكنوا بعدها بسنوات قليلة من الوصول للهند، ثم فكروا بعدها باقامة مستوطنات لهم في الشرق للسيطرة على تجارة التوابل، لذا أرسلوا العديد من الحملات لهذه الغاية، وفي عام ٩١٢ هـ / ١٥٠٦ م أرسل أسطول للشرق تحت قيادة ترستو دا كونا Tristao da Cunha^(٥)، والبوكيرك Albuquerque^(٦) اللذان بدءا أعمالهما عند موزمبيق Mo-zambique، ثم احتلا الساحل الغربي من مدغشقر Madagascar، ومن هناك سارا باتجاه الشمال محتلين العديد من المدن الساحلية الافريقية مثل مقديشو Mogadishu التي كانت تعتبر واحدة من أغنى وأقوى مدن ساحل أفريقيا الشرقي، ثم احتلت سوقطرة Socotra في ذي الحجة من عام ٩١٢ هـ / ١٥٠٧ م، وبنيت قلعة وحرست لتكون قاعدة للحملات البحرية في البحر الأحمر^(٧)، ولم يأت عام ٩١٥ هـ / ١٥٠٩ م إلا وكان البرتغاليون قد مدوا سيطرتهم على كل ساحل أفريقيا الشرقي، ما عدا مالندي Malindi التي تمتعت بامتياز خاص كحليف مستقل للبرتغاليين وبعد النجاح في هذه المهمة سلك كل من البوكيرك ودي كونا طريقا مختلفا، فاتجه دي كونا الى الهند حيث

٥ - عين ترستو أول قائد عام للهند، إلا أنه بسبب العمى المؤقت الذي أصابه قبيل الابحار فإن المنصب قد انتقل الى الميداء. انظر:

Henry Hart, Sea Road to the Indies (Norwich, 1952), p243

٦ - افونسو دي البوكيرك هو ثاني أولاد كونسالو دي البوكيرك، ولد عام ٨٥٧ / ١٤٥٣ في قرية الهاندرا Al-handra القريبة من لشبونة، ودرس في قصر الملك افونسو الخامس D. Affonso V، وذهب للشرق للمرة الأولى عام ٩١٠ / ١٥٠٣ انظر:

Albuquerque, Commenlaries, Vol. _v

xxxvii f. (London, 1875) p. 53 - 54.

حمل سفنه بالبهارات وعاد مبحرا الى البرتغال، بينما أبحر البوكيرك باتجاه الخليج العربي^(٨)، ورسا عند رأس الحد حيث أحرق أكثر من ٣٠ سفينة من سفن الصيد العاملة من منطقة والتابعة لهرمز وعدة موانئ أخرى، كما قام بتحطيم كل سفينة واجهته في أثناء سيره إلى قلعات على الساحل العماني، والتي أظهر أهلها استعدادهم لأن يكونوا تابعين للملك البرتغال، كما تزود بما يحتاج إليه ثم سار إلى قريات التي هاجمها وسيطر عليها ثم قام بحرق المدينة بعد نهب خيراتها كما أحرق ١٣ سفينة كانت راسية في مينائها، وسار بعدها إلى مسقط حيث توجه إليه رجلا من نبلائها وأعلنوا عن قبولهم لأن يكونوا تابعين للتاج البرتغالي، ولدفع الضريبة التي كانوا يدفعونها لملك هرمز، وعندما لاحظ البوكيرك أن أهالي مسقط يقومون ببعض الاستعدادات للدفاع عن المدينة، شرع في قصف المدينة بالمدافع، فقاومه الأهالي بشجاعة، ولكن الشجاعة لم تمنع وصول القذائف للمدينة، مما اضطرهم للاستسلام. وطلبوا من البوكيرك عدم حرق المدينة، فوافق على ذلك شريطة دفع مبلغ من المال على أن يصله ذلك المبلغ مع ظهر يوم الغد، ولما لم يصله المال في الموعد المحدد، قام بحرق المدينة بما في ذلك الجامع والسفن الراسية في الميناء، وقام بإطلاق سراح بعض الأسرى من الذين كان قد أسره في وقت سابق، بعد أن قطع أذانهم وأنوفهم، وقام البوكيرك أخيرا بنهب المدينة، وتوجه إلى صحار التي هجرها أهلها باستثناء بعض الموظفين الذين سلموا المكان للبوكيرك، وقبلوا بأن يقدموا الضريبة التي كانوا يدفعونها لملك هرمز لملك البرتغال. وواصل البوكيرك طريقة حتى وصل إلى خورفكان، وبسبب المقاومة التي قام بها أهلها في وجه البرتغاليين قام البوكيرك بحرق المدينة وقطع أذان وأنوف الأسرى^(٩).

وأبحر بعدها متوجها الى هرمز حيث استدعى سلطانها وحاكمها وطلب

R.B.SERJEANT, THE PORTUGUESE OF SOUTH ARABIAN COAST,(OXFORD, 1963) - ٨

P15

Albuquerque, Commentaries, Vol I , P 101;WILSON, THE PERSIAN GULF, 3RD ED. ٩

[London,1959] p 115

منها بأن يكونوا تابعين للبرتغال، وتمكن البوكيرك من إيقاع هزيمة سهلة بهم بعد رفضهم لما عرضه عليهم، وفي جمادي الأولى ٩١٣ هـ / سبتمبر ١٥٠٧م وقعت معاهدة بين الطرفين على أن يكون سلطان هرمز تابعا للتاج البرتغالي، ولم يكن بعض قادة البوكيرك مسرورين من البقاء في الجزيرة وأعلنوا العصيان، وأراد البوكيرك أن يتخلص منهم، إلا أن أربعة منهم فروا إلى خواجة عطار الذي رفض تسليمهم للبوكيرك، مما دفع البوكيرك لأن يحاصر الجزيرة، ورغب العصاة من البرتغاليين في أن يرفعوا أمرهم إلى الميدا، الحاكم البرتغالي العام للهند، والمقيم في مدينة كوجين Cochin، وهنا اضطر البوكيرك لأن يترك هرمز وأن يذهب إلى الهند، وهناك طلب البوكيرك من الميدا بأن يتنحى عن المنصب، وأن يعطيه إياه، ووقع خلاف بين الاثنين على نيابة الهند، ورفع هذا النزاع إلى البرتغال للبت فيه.

وكان البوكيرك عندما جاء إلى الشرق عام ٩١٢ هـ / ١٥٠٦م يحمل معه أمرا ملكيا بتعيينه نائبا عاما للهند، وكان قد أخفى الأمر حينما من الزمن^(١٠)، وعندما ظهر النزاع المذكور أفشى البوكيرك الأمر، لذلك أخذ البوكيرك مكان الميدا وعمل نائبا للهند في الفترة ما بين ٩١٥ - ٩٢١ هـ / ١٥٠٩ - ١٥١٥م.

وخلال الفترة الثانية - كنائب للهند - انتهج البوكيرك سياسة جديدة بنيت على أساس تقوية أقدام البرتغاليين في الشرق، ومن أجل السيطرة على تجارة الشرق. فقد اتجه البوكيرك لاحتلال أهم مضائق الشرق، من أجل الارتقاء بشأن البرتغاليين للوصول إلى درجة السيادة البحرية، ومن أجل تأمينهم من نزوات القوات المحلية، ولتحقيق هذه الغاية كان لا بد له من السيطرة على أهم مضائق الشرق للتحكم في حركة التجارة، وأهمها ملقا والبحر الأحمر ومضيق هرمز، إلا

J.G LORIMER, GAZETTEER OF THE PERSIAN GULF, (CALCUTTA, 1915), 1, i, P3 - ١٠

أنه قبل القيام بذلك لاحظ البوكيرك أن موضع مدينة كوجين Cochin التي كانت محل إقامة الميدا الأساسية، لا تعطي أساطيلهم مواضع استراتيجية، لأنها تقع في جنوب غرب الساحل الهندي، وفكر في إيجاد بديل لها، فوقعت أنظاره على مدينة كوة Goa التي تتوسط الساحل الغربي للهند أو ساحل مليبار، وكانت كوة تابعة للملكة بيجابور Bijapur، لذا فقد احتلها عام ٩١٦ هـ / ١٥١٠ م.

أما ملقا Malacca التي هي واحدة من أهم المواضع لاحتكار التجارة القادمة من الصين وجزر البهارات Spice Island فقد خضعت للسيطرة البرتغالية عام ٩١٧ / ١٥١١ م^(١١). أما عدن فتمتاز بموقعها الفريد للسيطرة على مداخل البحر الأحمر الجنوبية، وفشلت محاولة البوكيرك للسيطرة على هذه المدينة عام ٩١٩ هـ / ١٥١٣ م وكانت هرمز هي المحطة الأخيرة للبوكيرك. وكان حاكمها قد قبل السيادة البرتغالية عام ٩١٣ هـ / ١٥٠٧ م، ولكن البوكيرك لم ينجز خطته هناك بسبب الخلاف الذي نشب بينه وبين بعض ضباطه آنذاك، وفي محرم ٩٢١ هـ / فبراير ١٥١٥ م أبحر البوكيرك لهرمز برفقة أسطول كبير، وكانت الجزيرة بحالة ثورة ضد الحاكم الفارسي الذي قتل سلفه، لذلك لم تكن هناك حاجة لعمليات حربية من أجل استعادة الجزيرة.

وبهذا أوجد البوكيرك سيطرة برتغالية على طرق التجارة الشرقية في المحيط الهندي^(١٢)، كما أنشأ في الوقت نفسه إمبراطورية استعمارية^(١٣).

لقد سيطر البرتغاليون على جزيرة البحرين في العقد الثالث من القرن

Albuquerque, Commentaries, Voll Iii No Lxii, P101 - 131-

Lorimer, Gazetteer, I, i, p4

- ١١

- ١٢

١٣ - لمزيد من المعلومات حول نشاط البرتغاليين في الشرق انظر

Faisal Alkanderi , The Ottomans And The Gulf

In The Mid - Sixteenth Century, Ph.d. Thesis, University Of Manchester, 1992, PP47 - 62.

السادس عشر الميلادي، فدفع ذلك أهالي البحرين لتتطلع إلى العثمانيين القوة الإسلامية الوحيدة البارزة في المنطقة لمساعدتهم، ولا سيما بعد سيطرة العثمانيين على القطيف والإحساء^(١٤)، في النصف الثاني من القرن المذكور. وفي ربيع الأول عام ٩٥٩ هـ / يناير ١٥٥٢ م أرسل أفونسو دي نورنha Afonso de Noronha الحاكم البرتغالي العام للهند، رسالة إلى ملك البرتغال يخبره بأن عرب البحرين ينوون تسليم الجزيرة للعثمانيين^(١٥).

المجاهدات العثمانية البرتغالية في الخليج العربي.

١ - حملة بريي ريس^(١٦):

في عام ١٥١٧ م ضم العثمانيون مصر والحجاز، كما سيطروا على اليمن، وأوجدوا لأنفسهم ميناء آخر بالإضافة لميناء السويس وهو ميناء عدن في عام ١٥٣٨، وكان عليهم أن يمنعوا البرتغاليين من التغلغل في البحر الأحمر، لذا فقد تمتعت اليمن بأهمية استراتيجية كبيرة عند العثمانيين إذا ما أرادوا حماية ميناءهم الرئيسي في السويس.

إن دخول العثمانيين منطقة الخليج العربي في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي، جعلهم يقفون وجها لوجه مع البرتغاليين الذين سيطروا على المنطقة منذ عام ١٥٠٧ م، وفي عام ١٥٥٠ - ١٥٥١ زاد النشاط البرتغالي في

١٤ - سيطر العثمانيون على مدينة القطيف في النصف الثاني من القرن السادس عشر، عندما استرد عرب القطيف المدينة من البرتغاليين وسلموها للعثمانيين في عام ٩٥٧ هـ / ١٥٥٠ م، أما الإحساء فليس هناك معلومات واضحة توضح تاريخ دخول العثمانيين إليها. ويعتقد بأن العثمانيين قد احتلوا الإحساء في أوائل عام ٩٥٩ هـ / ١٥٥٢ م لمزيد من المعلومات انظر: -105 - 103, pp. ibid

١٥ - مجموعة أبو ظبي، -71 - 87 - 1 Antt, cc

١٦ - كان بريي ريس ملاحا وعالما وجغرافيا مشهورا، وتعتبر فترة حياته من عام ٩٣١-٩٤٥ هـ / ١٥٢٥ - ١٥٤٧ م لا تزال مجهولة، ترك كتابا في البحرية عرف باسم: «البحرية» وصف فيه البحر المتوسط. انظر: كاتب جلبي. تحفة الكبار في أسفار البحار (استانبول، ١٣٢٩) ص ٦١ - ٦٢؛

Cengiz Orhonlu "Hind Kaptanligi Ve Piri Reis", Belleten, xxxIV (1970), P236

منطقة الخليج، وقاموا بمحاولات لوقف التغلغل العثماني في المنطقة، كما حاولوا طرد العثمانيين من المناطق التي وطئوها، فقد خربوا القطيف والإحساء، كما أقاموا علاقات مع شيوخ القبائل العربية المناوئة للحكم العثماني في أطراف البصرة، وأخذوا يشجعونهم على الوقوف في وجه العثمانيين^(١٧)، كل هذه العوامل دفعت العثمانيين إلى تجهيز حملة ضد البرتغاليين في الخليج، لذلك خرج بيرس ريس على رأس حملة مكونة من ٣٠ سفينة عليها ٨٥٠ شخص عام ٩٥٩ هـ / ١٥٥٢ م، وقد زود بأوامر للسيطرة على هرمز، وإذا سارت الأمور حسب الخطة، يواصل سيره للإستيلاء على البحرين، يذهب منها إلى البصرة التي كانت تعاني من اضطرابات العرب المستمرة، وعليه أن يقضي الشتاء هناك، وأن يبقى ١٠ سفن هناك إذا دعت الضرورة، وأن يرجع بالباقي إلى مصر^(١٨).

أما البرتغاليون فقد كانوا على علم بالاستعدادات العثمانية^(١٩)، لذا أرسل حاكم هرمز دي الفارادا نورنها D. Alvarada Noronha أحد قواده لمراقبة الأسطول العثماني من الشواطئ المحيطة بالخليج العربي في جمادي الآخرة ٩٥٩ هـ / مايو ١٥٥٢ م^(٢٠).

وعبر بيرس ريس مضيق باب المندب باتجاه الشحر، وخسر هناك بعض السفن بسبب سوء الأحوال الجوية^(٢١)، وفي أغسطس أرسل خمس سفن بقيادة

١٧ - SALIH OZBARAN, "OSMANLY IMPARATORLUGU VE HINIDISTAN YOLLU" TARIH DERGISI (TD), XXXI (1977) P123 - 124-
KOGUSLAR, 888, 487B - 488A -

١٨ - هناك وثيقة برتغالية يرجع تاريخها إلى ١ رمضان ٩٥٩ هـ / ٢٠ أغسطس ١٥٥٢ م تشير إلى الاستعدادات التي تمت في القاهرة لتجهيز حملة، وتقول بوجود ١٣ سفينة في السويس و ١٣ أخرى في القاهرة، وقد تسلم والي القاهرة تعليمات لبناء ٦٠ سفينة أخرى، كما أرسل إلى العاصمة استانبول طالبا أسلحة ومؤونة والبحارة اللازمين للسفن المذكورة.

(انظر: مجموعة أبو ظبي، (37 - 17 - III، ANTT, CC, 17 - 37)

٢٠ - SALIH OZBARAN, OTTOMAN TURKS AND THE PORTUGUESE IN THE PERSIAN GULF, PH.D. THESIS, UNIVERSITY OF LONDON, OCTOBER 1969, P50

٢١ - علي ريس، مرآت الممالك، ص ١٢ - ١٣

ابنه محمد الذي تقدم إلى خليج عمان، فوصل مسقط وحاصرها، كما قام بقصف المدينة، تلك القلعة التي امتلكها البرتغاليون منذ عام ٩١٣ هـ / ١٥٠٧ م لمدة ستة أيام، وفي اليوم السابع من الحصار، وصل بيرى ريس إلى مسقط، فقرر جوا دي لسبوا Joao de Lisboa قائد الحامية البرتغالية في مسقط، والذي كان قد أرسل إلى هناك لبناء قلعة فيها، تسليمها للعثمانيين^(٢٢)، وأخذ العثمانيون ١٢٠ برتغاليا أسرى للعمل كمجدين في أسطولهم^(٢٣)، ولم يحتفظ بيرى ريس بالقلعة لأنه لم يكن لديه العدد الكافي من الجنود ليركهم في القلعة، بالإضافة إلى قرب مسقط من هرمز التي كانت قاعدة البرتغاليين في الخليج، وبعدها عن الولاية العثمانية سواء كانت الاحساء أو البصرة، لذلك أخذ كل ما هو مفيد منها، ثم هدمها وتركها متوجها إلى هرمز^(٢٤).

كان نورنها القائد البرتغالي لهرمز على علم تام بتحركات العثمانيين، وأخذ احتياطاته الكافية للمقاومة، فكان لديه ٩٠٠ شخص بالإضافة إلى مؤونة تكفي لحصار طويل، وأرسل القائد البرتغالي طالبا المدد من كوة عاصمة البرتغاليين في الشرق^(٢٥).

وصل بيرى ريس إلى هرمز ب ٢٨ سفينة وعلى متنها ٨٥٠ جندي^(٢٦)،

٢٢- Koguslar, 888, 487b؛ ويقول ولسون نقلا عن فاريا سوسا بأن برتغالي المدينة قد قاموا قرابة شهر من الزمان (انظر: A.T.WILSON, PERSIAN GULF, 3D ED. (LONDON, 1959) P 125- OZBARAN, OTTOMAN, TURKS, P51, 118 (انظر: ٢٣- Koguslar, 888, 487b؛ تقول المصادر البرتغالية بأن لبسوا LISBOA استسلم بشرط أن يسمح بيرى ريس للحامية البرتغالية والمكونة من ٦٠ شخصا بالمغادرة بحرية إلى ميناء هرمز، إلا بيرى ريس لم يلتزم بذلك، وأخل بالشرط بأن جعل الكابتن و ٦٠ آخرون يعملون كمجدين، إلا أن الوثائق العثمانية لا تذكر أي شيء عن هذا الشرط، وتضيف تلك الوثائق بأن عدد الأسرى بلغ ١٢٠ وليس ٦٠ برتغاليا. (من أجل رأي المصادر البرتغالية انظر: OZBARAN, OTTOMAN TURKS, P51, 52, WILSON, PERSIAN GULF P 125- CENGİZ ORHONLU, "HİND KAPTANLIGI " ,P243.

٢٤-
٢٥- WILSON, PERSIAN GULF P 125
٢٦- Koguslar, 888, 487

وحاصرها في سبتمبر، فقام نورنها بإخطار النائب العام للهند عن هذه المحاولة، وسعى للحصول على دعم من هناك ليصمد في وجه مدافع بيرى ريس، واستمر الحصار حوالي عشرين يوما، وفي النهاية لم يتمكن العثمانيون من أخذ المدينة، وهناك خشي بيرس ريس من وصول المدد البرتغالي في أي لحظة ويحاصره أثناء انشغاله بحصار جزيرة هرمز^(٢٧) كما أن أمواله قد نفذت، ولم يكن لديه الأموال الكافية لدفع علفه (مرتبات) الجند^(٢٨)، لذلك رفع الحصار متجها إلى جزيرة قشم، التي لم تظهر أي مقاومة في وجهه، فنهب المدينة، واتجه إلى البصرة فوصلها في ذي القعدة ٩٥٩ هـ / أكتوبر ١٥٥٢ م^(٢٩)، ثم علم بوصول مدد برتغالي لجزيرة هرمز^(٣٠)، مما يدل على أن خروجه من هرمز كان في الوقت المناسب. أما النائب العام للهند عندما علم بأن الخطر يهدد قاعدة البرتغاليين في الخليج، لم يضيع أي وقت وإنما قام من فوره بإرسال أسطول كبير، وقرر أن يتولى قيادة الأسطول بنفسه، لكنه عندما وصل إلى مدينة ديو، علم بأن الأسطول العثماني أبحر للبصرة، وهنا عين ابن أخته قائدا للأسطول المكون من ١٢ سفينة كبيرة و ٢٨ سفينة صغيرة ولما وصل الأسطول إلى هرمز علموا أن الخطر العثماني قد ابتعد عن الجزيرة^(٣١).

وهنا خشي بيرى ريس من أن البرتغاليين قد يقطعون عليه خط الرجعة. وزاد دي لسبوا Lisboa^(٣٢) . من مخاوف بيرى ريس من أنه إذا تربص

C. Orhonlu, "hind Kaptanligi", P244

- ٢٧

koguslar, 888, 487b, 488a, 488b, 489a

- ٢٨

٢٩- c. Orhonlu, "hind Kaptanligi P244"؛ قبيل الإبحار إلى البصرة أرسل بيرى ريس رسالة مع ابنه محمد إلى قياد باشا، أمير أمراء البصرة، أخبره فيها بيرى ريس عن استيلائه على مسقط وذهابه لهرمز. (انظر: koguslar, 888, 487b)

٣٠- كاتب جلبي، تحفة الكبار في أسفار البحار (استانبول، ١٣٢٩) ص ٦١

٣١- C. Orhonlu, "hind Kaptanligi P244"

٣٢- احتفظ بيرى ريس به كخبر ربا بشؤون الخليج العربي. (انظر كاتب جلبي، المصدر السابق، نفس الصفحة)

البرتغاليون بمضيق هرمز، فلن يتمكن من إيصال الأسطول بسلام إلى السويس فتشاور بيرى ريس مع قباد باشا، أمير أمراء البصرة^(٣٣)، وقرر بأن يأخذ ثلاث سفن فقط، ويرجع بها إلى السويس وهذه السفن تمكن من الفرار من البرتغاليين، إلا أن إحدى سفنه تحطمت عند سواحل البحرين^(٣٤)، ووصل إلى ميناء السويس بسفینتين فقط، وعند وصول بيرى ريس إلى القاهرة، سجنه داوود باشا وإلى مصر^(٣٥)، على اعتبار أن بيرى ريس كان هو قبطان السويس، فهو المسئول رسمياً عن الأسطول الذي كان بحوزته، فكيف يغادر بيرى ريس ساحة المعركة، تاركا الأسطول وراءه في البصرة، وقام داوود باشا بإخطار العاصمة استانبول بحقيقة الموقف، ثم تلقى تعليمات من العاصمة بإعدام بيرى ريس، حيث اتهم بالخيانة، لأنه فر من المعركة تاركا السفن التي كانت تحت مسؤوليته ورجع دونها إلى القاهرة ولهذا أعدم بيرى ريس في القاهرة عام ٩٦١هـ / ١٥٥٤م^(٣٦).

٢ - حملة مراد ريس:

منحت الدولة العثمانية لقب مصر قوداني^(٣٧) (قبطان مصر) لمراد ريس، الذي كان سنجاق بك (أميراً) على القطيف، وكانت مهمته تنحصر في السفر إلى البصرة لإرجاع الأسطول إلى القاهرة، وخرج مراد ريس ب ١٧ سفينة تاركا ثمان سفن أخرى في البصرة^(٣٨).

٣٣- C. ORHONLU, "HIND KAPTANLIGI", P245

٣٤- علي ريس، مرآت الممالك (استانبول، ١٣١٣) ص ١٣

٣٥- كاتب جلبي، تحفة الكبار، ص ٦١

٣٦- ابراهيم يجوي، تاريخ يجوي، ج١ (استانبول، ١٩٨٠) ص ١٨٨

C. ORHONLU, "HIND KAPTANLIGI", P245 -246

OZBARAN, OTTOMAN TURKS, P51,56

٣٧-

٣٨- علي ريس، مرآت الممالك، ص ١٣. يقول علي ريس بأن إحدى السفن احترقت في البصرة، مما قد يعني بأن بيرى ريس فقد سفینتين إما في هرمز أو في طريقه للبصرة.

أما البرتغاليون فقد أرسلوا أحد بحارتهم إلى شط العرب لجمع المعلومات عن الأسطول العثماني، فعلموا بأن حملة مراد ريس على وشك الإبحار^(٣٩)، وكن البرتغاليون للأسطول العثماني في مضيق هرمز، ودارت معركة حامية بين الطرفين، خسر فيها العثمانيون قبطانين مشهورين هما رجب وسليمان ريس، وفقدوا أعداد كبيرة من مقاتليهم، كما جرح عدد كبير منهم، وحطم البرتغاليون عددا من السفن العثمانية^(٤٠)، لذا قرر مراد ريس العودة إلى البصرة. وأرسل تقريرا عن هذه الرحلة إلى استانبول^(٤١).

٣- مغامرة سيدي علي ريس:

عندما فشلت جهود مراد ريس، كانت الإدارة العثمانية ماتزال حريصة على عودة السفن إلى السويس، لذا احتل سيدي علي ريس مكان مراد ريس، وأوكل بنفس المهمة، وسيدي علي ريس^(٤٢) هو أحد البحارة المشهورين الذين شاركوا في حملات عديدة في البحر المتوسط، وقد حاز شهرة كبيرة كببحار ماهر، وعين علي ريس مصر قبوداني (قبطان مصر) في أواخر ذي الحجة ٩٦٠ هـ / نوفمبر ١٥٥٣ م^(٤٣) ووصل إلى البصرة في فبراير ١٥٥٤ م.

وقبيل إبحار علي ريس أرسل بكلربك (أمير الأمراء) البصرة مصطفى

ÖZBARAN, OTTOMAN TURKS, P51,57

٣٩-

٤٠- علي ريس، مرآت الممالك، ص ١٣ كاتب جلبي، تحفة الكبار، ص ٦٢

٤١- كاتب جلبي، تحفة الكبار، ص ٦٢

٤٢- وهو علي بن حسين، ويعرف أيضا باسم كاتب رومي وقد شارك في الحملة التي قادها السلطان سليمان القانوني ضد جزيرة رودس كما قاتل علي ريس تحت إمرة قادة مشهورين من أمثال خير الدين بربروسا وسان باشا وغيرهم العديدين في البحر الأبيض المتوسط. ترك علي ريس العديد من الكتب في الفلك والحكمة. وعلم البحار. وقد خدم أباه وجده من قبله في ترسانة مدينة غلطة المجاورة لاستانبول. ويبدو أنه ورث مهارتهم واستفاد كثيرا من خبرتهم. (انظر: علي ريس، مرآت الممالك، ص ١٤) ومن أشهر كتبه: المحيط، الذي يتعلق بالمحيط الهندي ومرآت الكائنات - والمتعلق بعلوم الاسطرلاب، والفتحية. (انظر: كاتب جلبي، تحفة الكبار، ص ٦٢؛ بجوي تاريخي، ج١، ص ١٩٨) ٤٣- علي ريس، مرآت الممالك، ص ١٤

باشا^(٤٤) أحد الأشخاص الماهرين بالبحر^(٤٥) ليستكشف الطريق، وليجمع معلومات عن الأسطول البرتغالي، وبعد شهر واحد عاد الشخص وأخبر بوجود أربع سفن برتغالية فقط في الخليج، وعليه خرج علي ريس من البصرة ب ١٥ سفينة^(٤٦) في ١ شعبان ٩٦١ هـ / ٢ يوليو ١٥٥٤ م، وسار برفقته الشريف - الذي أرسل أنفا لجمع معلومات عن البرتغاليين - حتى وصلوا إلى هرمز، ثم رجع الشريف إلى البصرة^(٤٧).

كان البرتغاليون على علم بإبحار أسطول علي ريس لذلك جهزوا سفنهم وزودوها بالذخيرة، وانتظروا الأسطول العثماني في رأس مسندم عند خورفكان بخمس وعشرين سفينة^(٤٨)، وفي ١٠ رمضان ٩٦١ هـ / أغسطس عام ١٥٥٤ م دارت معركة من أقوى المعارك البحرية بين الجيشين، وتمكنت المدفعية العثمانية من إغراق سفينة برتغالية، وتراجع البرتغاليون إلى إحدى قواعدهم^(٤٩)، وتوجه العثمانيون إلى خورفكان حيث تزودوا بالماء.

وبعد سبعة أيام وصلوا إلى مسقط، وهنا ظهر الأسطول البرتغالي من جديد إلا أنه تكون هذه المرة من ٣٤ سفينة، وتقابل الفريقان، وعانى كلاهما من خسائر فادحة. واضطر الأسطول العثماني لأن يرسو في إحدى المناطق القريبة، وتوجه بعض الأمراء وحوالي ٢٠٠ جندي إلى الشاطئ طلباً للمساعدة، فجاءت أعداد كبيرة من العرب لنجدة العثمانيين المسلمين^(٥٠)، ودارت معركة حامية بين الطرفين

٤٤ - لقد خلف مصطفى باشا قباد باشا المذكور أنفا.

٤٥ - كان هذا الشخص أحد الأشراف الماهرين بعلوم البحار. (علي ريس، مرآت الممالك، ص ١٤) وقد أخطأ البروفسور صالح أوزبران حين قال بأنه أحد العجم من بلاد فارس وأسمه ماهر شريف. (OZBARAN, OTTO MAN TURKS, P59,N59)

٤٦ - عند وصول علي ريس للبصرة، سلمه مصطفى باشا خمس عشرة سفينة باقية كانت بحالة يرثى لها، لذا قام بإصلاح السفن وزودها بالأسلحة لتصبح جاهزة للابحار. (انظر: علي ريس، مرآت الممالك، ص ١٦)

٤٧ - المصدر السابق، ص ١٨ - ١٩

٤٨ - OZBARAN, OTTOMAN TURKS, P127

٤٩ - OZBARAN, "OSMANLY IMPARATULUGU", P172

٥٠ - علي ريس مرآت الممالك، ص ٢١؛ كاتب جلبي، تحفة الكبار، ص ٦٤

C. ORHONLU, "SEYDI ALI RIES", TED,I,(1970) P46

ووصفها علي ريس بأنها واحدة من أعظم معارك خير الدين بربروسا^(٥١)، وخسر العثمانيون المعركة، ومن أجل المحافظة على تسع السفن الباقية معه سار علي ريس بمحاذاة ساحل خليج عمان^(٥٢) إلا أن الرياح أبعده عن الساحل العربي في المياه المفتوحة، ليصل أخيراً ميناء جسك^(٥٣) في إقليم كرمان، ووصل بعدها إلى ميناء جوادر في إقليم بلوشستان، وتزود بمؤونة جديدة^(٥٤) ناويا العودة إلى اليمن ومن ثم إلى السويس.

ولما وصل إلى ظفار على ساحل بحر العرب، عاد هبوب الريح من جديد، ومن أجل تخفيف حمولة السفن فقد ألقى البحارة معظم المؤونة المخزنة^(٥٥)، وجرفت الرياح الأسطول العثماني إلى الساحل الهندي بالقرب من ديو Diu، التي كانت تحت سيطرة البرتغاليين، فذهب علي ريس إلى ميناء دمن Daman في كوجرات، إلا أنه بسبب سوء الأحوال الجوية فقد هناك ثلاث سفن^(٥٦)، ورحب به ملك أسد^(٥٧)، حاكم دمن، ونصحه بالتوجه إلى مكان آمن مثل سورات، وترك علي ريس سفنه، ومدافعه وأسلحته أمانة عند ملك أسد^(٥٨)، وهنا ترك بعض جند علي ريس الخدمة عنده، ودخلوا في خدمة ملك أسد^(٥٩)، بينما توجه البقية برأً لميناء سورات^(٦٠)، أما علي ريس فقد أخذ مرشداً وتوجه برفقة السفن الست الباقية إلى سورات^(٦١)، ومكثوا هناك بعض الوقت.

وفي سورات كانت هناك مصاعب جمة تواجه العثمانيين، منها الانفاق على

٥١ - علي ريس مرأت المالك، ص ٢١

٥٢ - OZBARAN, OTTOMAN TURKS, P62

٥٣ - يقع هذا الميناء اليوم على الساحل الإيراني، وقد أطلق عليه اسم علي ريس باسم «جاش»

٥٤ - علي ريس، مرأت المالك، ص ٢٢؛ كاتب جلبي، تحفة الكبار، ص ٦٤

٥٥ - كاتب جلبي، تحفة الكبار، ص ٦٥؛ P47 Orhonlu "ALI RIES"

٥٦ - المصدر السابق، نفس الصفحة.

٥٧ - عندما تولى السلطان أحمد شاه العرش (٩٦١ - ٩٦٧ هـ / ١٥٥٣ - ١٥٥٩ م) بعد وفاة أبيه السلطان محمود الثاني، قلد ملك أسد هذا المنصب.

٥٨ - علي ريس، مرأت المالك، ص ٢٧

٥٩ - كاتب جلبي، تحفة الكبار، ص ٦٦

٦٠ - علي ريس، مرأت المالك، ص ٢٨

٦١ - C.ORHONLU "ALI RIES", P47- فريدون بك، منشآت السلاطين، ج١ استانبول، ١٢٧٤ ص ١٧ - ٦١٨

الجيش، ولاسيما بعد أن نفذت أمواهم^(٦٢)، لذا فإن ٢٠٠ من الرماة (توفنكجي) وغيرهم خدموا في جيش السلطان أحمد سلطان كوجرات^(٦٣)، وكانت السفن العثمانية في حالة يرثى لها، وغير قادرة على الابحار إلى مصر^(٦٤)، وتحت ضغط هذه الظروف قرر علي ريس بيع الأسلحة والسفن الباقية معه لحاكم سورات^(٦٥)، وبعد أن قبض ثمنها من رجب خان^(٦٦)، حاكم سورات، قرر الذهاب برا إلى القسطنطينية، لتسليم المبلغ للحكومة^(٦٧)، وخرج برفقة ٥٠ رجلا في ١ محرم ٩٦٢ هـ / ٢٦ نوفمبر ١٥٥٤ م^(٦٨)، وسار عبر الهند إلى فارس والبصرة وبغداد ووصل استانبول في رجب ٩٦٤ هـ / مايو ١٥٥٧ م بعد رحلة استغرقت أربع سنوات^(٦٩)، ووصف رحلته هذه في كتاب كتبه بالعثمانية أسماه «مرآت الممالك»

٦٢ - كاتب جلبي، تحفة الكبار، ص ٦٦

C.ORHONLU "ALI RIES", P48

٦٣ -

٦٤ - كاتب جلبي، تحفة الكبار، ص ٦٦

٦٥ - المصدر السابق، نفس الصفحة. يعتقد بأنه كان هناك فرق بين المنصبين كولوال وخذواند خان، وهذا ما أوقع جنكيز أورهنلو في بعض الأشكال، فكان الأول بمثابة أمر وهذا ظهر في مكانين الأول لسورات نفسها وتمثل هذا المنصب في شخصية آغا حمزة، والآخر كان في قلعة سورات، وتمثل المنصب في شخصية حسين آغا (انظر: علي ريس، مرآت الممالك، ص ٢٨ - ٢٩، ٣٢، P48 N.43 "SEYDI ALI RIES", C. ORHONLU، أما المنصب الثاني خدواند خان فكان بمثابة حاكم، وقد أعطي هذا المنصب لخواجه صفر السلمي، وبعد وفاته في عام ٩٥٣ هـ / ١٥٤٦ م انتقل هذا المنصب لابنه رجب. (انظر:

E.D.ROSS, "PORTUGUESE IN INDIA AND ARABIA 1517 - 1537", JARS, PART I, (1922) P18

وقيل أن يقوم علي ريس ببيع الأسلحة، أرسل السلطان العثماني سليمان القانوني رسالة لرجب خان، حاكم سورات، أخبره فيها عن امتنانه لاستلام رسالة منه التي أخبره فيها عن مغامرات علي ريس قبل وصوله إلى ميناء سورات، وتساءل السلطان فيما إذا كان رجب خان يمتلك مكانا لبناء سفن أم لا، وأضاف بأنه سيقوم بإرسال سفن كافية لمقاتلة البرتغاليين. وطلب السلطان من رجب بأن يقوم بإرسال المدافع إلى مصر وإذا تعذر ذلك فعليه أن يضعها في مكان آمن لتستخدم ضد البرتغاليين. (انظر: فريدون بك، منشآت السلاطين، ج ١ ص ٦١٧ - ٦١٨) كما أرسل السلطان نفس الرسالة إلى السلطان أحمد سلطان كوجرات (انظر: المصدر السابق، ص ٦١٨ - ٦١٩؛ لاحظ هنا أن العنوان قد كتب خطأ إلى أحمد خان، حاكم البحرين، بدلا من أحمد شاه سلطان كوجرات، وهذا أوقع أورهنلو في خطأ حين قال بأن أحمد كان حاكما على البحرين قبل مراد شاه (انظر:

ORHOLU, "1559 BAHREYN SEFERINE AID BIR RAPOR" TD, SAYI 22, (1960), P7,N.11)

٦٦ - قتل رجب خان عام ٩٦٨ هـ / ١٥٦٠ م. (انظر: محي الدين العبدروسي، النور السافر عن أخبار القرن العاشر، ط ١ (بيروت، ١٩٨٥) ص ٢٤١).

٦٧ - كاتب جلبي، تحفة الكبار، ص ٦٦

٦٨ - المصدر السابق. نفس الصفحة؛ علي ريس، مرآت الممالك، ص ٣٢؛ C. ORHONLU, "SEYDI ALI RIES", P48

٦٩ - كاتب جلبي، تحفة الكبار، ص ٦٦

وتلقى علي ريس زيادة في راتبه بمقدار ٨٠ اقجة في اليوم. كما تلقى رفاقه أيضا ترقية^(٧٠) لما لاقيه من المصاعب ثم عين علي ريس دفتردار لتيهار في منطقة ديار بكر^(٧١). وفي ٢٧ ربيع الثاني ٦٩٧ هـ / ٢٤ يناير ١٥٦٠م عين رئيسا على ما يعرف باسم خاص كمي (سفينة السلطان الخاصة) براتب يومي قدره ١٥٠ آقجة، ثم أعيد علي ريس قبطانا على مصر للمرة الثانية في ٢١ رجب ٩٦٧ هـ / ١٦ إبريل ١٥٦٠م. إلا أن المنصب منح لصفر ريس، قبطان اليمن، بعد خمسة أيام، وتوفي علي ريس في ٢ جمادي الأولى ٩٧٠ هـ / ٢٨ ديسمبر ١٥٦٢م.

رسالة السلطان سليمان لمراد ريس

قام مراد خان^(٧٢)، حاكم البحرين، بإرسال رسالة للسلطان سليمان القانوني، لتقديم ولائه وإخلاصه للدولة العثمانية^(٧٣) واستجابة لذلك أرسل السلطان القانوني رسالة (منشور همايون) لمراد، وعين مراد ريس سنجاق بك (أي أمير لواء) على الجزيرة.

وبما أن الرسالة المنشورة لا تحمل تاريخا^(٧٤). لذا فإنه من الضروري أولا تحديد تاريخ تقريبي للرسالة من خلال استقراء الحوادث التاريخية المتعلقة بعلاقة العثمانيين بجزيرة البحرين، عندما خرج بري ريس الى هرمز في أواخر عام ٩٥٩ هـ / ١٥٥٢م، فقد أعطى أوامر باستيلاء على البحرين - إن أمكن - وذلك في طريقه للبصرة^(٧٥)، وهذه الأوامر تدل على أن البحرين لم تكن تابعة للسيادة العثمانية في ذلك الوقت.

٧٠- علي ريس، مرآت الممالك، ص ٩٨

٧١- المصدر السابق نفس الصفحة

٧٢- لم تغط المصادر التاريخية أي معلومات عن مراد خان أو عن كيفية وصوله للحكم.

٧٣- أرسلت الرسالة مع خواجه شرف الدين حسن بن أيوب. انظر: فريدون بك، منشآت السلاطين، ج ١ ص

٦١٠-٦١٢

٧٤- كانت الكتب السلطانية لا تخرج بدون تاريخ حيث كان التاريخ يكتب في آخر الرسالة بالعبارة التالية: تحريراً في ... (انظر: محمد فريدون بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق د. احسان حقي، ط ٥، بيروت ١٩٨٦، ص ٢١٠ إلا أن فريدون بك يورد المراسلات بحذف التاريخ والمكان الذي كتب فيه الرسالة.

-٧٥

أما البحار سيدي علي ريس لما أراد إعادة السفن التي تركت في البصرة بعد حملة ييري ريس إلى مصر، زار في طريقه مراد ريس حاكم البحرين، ودار بينهما حديث وسأل علي ريس مراد عن البرتغاليين في الخليج، كما أوضح علي ريس بأن مراد ريس أعطاه كنوع من التقدير والاحترام ماء للشرب كان الغواصون يخرجونه له من أعماق الخليج^(٧٦)، وهذا يدل على أن مراد ريس كان على علاقة حسنة مع العثمانيين في الوقت الذي زار فيه علي ريس البحرين عام ٩٦١هـ / ١٥٥٤م، وهذه العلاقة الحسنة استمرت بعض الوقت، وأخطأ صالح أوزبران Salih Ozbaran حين قال بأن مراد ريس عين سنجاق بك على البحرين في عام ١٥٥٩م^(٧٧).

واستنادا لما ذكر، إذا أخذنا في الاعتبار ما قاله نورها ملكه - السابق الذكر - فإنه من الممكن القول بشيء من الاطمئنان بأن تلك الرسالة قد كتبت من قبل السلطان سليمان القانوني في عام ٩٦٠هـ / ١٥٥٣م.

نص الرسالة:

كانت معظم الرسائل السلطانية تكتب في القرن السادس عشر بالخط الديواني، ولا توجد بها علامات الترفيم، إلا أنه لتسهيل وصول المعنى للقارئ فقد استحدثت تلك العلامات في النص المعاد نشره هنا، كما أن هناك بعض الأخطاء الإملائية وردت في النص الأصلي، وهذه نقلت كما هي وصححت في الهوامش، وهذه نص الرسالة: -

«أما بعد، فهذا كتابنا الشريف السامي، ورسالتنا المنيف العالی الخاقاني،

٧٦- علي ريس، مرأت المالك، ص ١٨

S.Osbaran, Ottoman Turks,P66.

٧٧-

لا زال نافذا في الربع المسكون بحق من نطق بالصاد والنون، أرسلناه إلى الجانب الملكي الأميري الكبير الأكرمي الأمجدي الأفخمي الأسعدي الأعدي الأكملي المجاهدي المرباطي، نصير الاسلام والمسلمين، ظهير الملوك والسلاطين، المختص بالمواهب السنية من قبل أمير الملل، معتمد الدولة الأمير جلال الدين مراد خان، صاحب الحاكم يؤمئذ بولاية جزيرة البحرين، خصه الله تعالى بصنوف المفاخر، والوف المآثر، وزاد عزه الوافر المتكاثر، نهدي إليه سلاما جميلا، وثناء جزيلا، ونهني إلى علمه الكريم، وننبأ بأن موصل هذا الكتاب المفخم المبجل المكرم بالوجه الأجل الخواجة شرف الدين حسن بن أيوب، زيد شرفه ووقعه، قد وصل إلى عتبنا العلية بكتابه المرسل إلي سدتنا الجليلة، فلما تمثل بمواقفنا العلي الخاقاني، وأوصله إلي مقامنا الأعلى، أعلاه الله تعالى، عرض بطريق الرسالة ألوف الإخلاص، وصنوف الإختصاص، من الجانب الشريف، قائلًا بأنه قاصد ورسول منه، وآت من ذلك الباب المنيف، فنظرنا إلى هذا الكتاب المستطاب، وفيما فيه، وتعلق علمنا الشريف بجميع ما اندرج في أثناء سطورره، واندمج في منشوره، وبما قاله القاصد المومى إليه وقت حضوره، فعلمنا واتضح لدينا جملة ما فيه من قواده إلي خواتمه، من إظهار أمور الإختصاص، وأشعار وفور الإختصاص، وما هو المأمول والمستول المتعلق بما هو في يده من الإيالة، وما يسر ويبتهج بحصوله، المنتمي إلي ما يستدعيه ويرتضيه من استقرار ما كان على ما كان من أزمان آبائه وأجداده، بعد حسن القبول بعجزه وافراده وآحاده، وغير ذلك من المتممات والمقاصد والمرامات، لتكون تلك في حومة ولايته بالأصالة، وأحاط علمنا الشريف الخسرواني بأنه قد أرسله بيد هذا الرسول الصادق في قوله المعول المقبول، معتقدا وجازما بأن الرسائل أقدام ذوي الحاجات، والوسائل مفاتيح الطلبات، ومعتمدا على منبع حرمننا، وراجيا وسيع كرمنا، وإن كل من التجى إلى حرمننا لحماه حماه، ومن شاهد وجه كرمنا ومحياه حياه، ولئن بذل

المجهود على وجه المودود في خصوص الملتجي والمرتجي ومظهر الخلوص كائنا من كان، وكيف ما كان من الشيم الكريمة السلطانية، والعادة القديمة الخاقانية من قديم الزمان إلى الآن، لا سيما في حق من جوبل على فطرة الإسلام، وامتلأ قلبه بالايان. وسلك مسلك الإخلاص، وتثبت بذيل الاختصاص، بالإرجاء والإستيان، مما يعد من أهم المفترضات ومن الوجوه الحسان. فلما حصل في علمنا الشريف اليقين بشرف هذا التبيين، انه جدير بالعناية في هذه الأبواب، وحرى للحماية بلا ارتياب، اظهرنا في خصوصه من بذل المهمة، ومزيد العناية من العواطف العلية السلطانية، والعوارف الجليلة الخاقانية، بالاسعاد فيما يرتضيه ويرتجي في حصول المراد، حيث قبلنا مأموله، وساعدنا مسئوله، ونراعيه برعاية وعناية ازيد، مما هو ملحوظ خاطره، ومكنون ضميره، إن شاء الله تعالى.

فالآن، قرنا أولا تلك الولاية المشهورة بجزيرة البحرين، المذكورة بالميراث في البنين بيده، وقلدناها له، وفوضنا إياها إليه، وشددنا أمره، ونفذنا كلامه. فرفعنا ثانيا هذا الكتاب المستطاب إلى ذلك الجنب، ورسمنا أن تكون هي بعد اليوم مستقرة في يد الأمير جلال الدين مراد خان - المشار إليه - بطريق الايالة، على مكان^(٧٨)، ويتصرف هو فيها مستمرة [كذا] بالأصالة على الوجه الذي كانت هي عليه من قديم الزمان، ويصير سببا لشد العهد والوثائق، وناطقا بما تحويه في الأفاق من أن يكون تصرفه مستوعبا لزمان حيويته، ويبقى في يده وتصرفه مادام حيا وسالكا جادة السداد على ما هو حالة المعتاد، وراعيا للموعدود بالوجه المودود، المستوجب لحسن الالتفات، يتنسم نسيمات العنايةات على حدايق مقاصده وآماله، ويُترشح أمطار الحمايةات على مفارق مطالبه وأحواله، إلى أن سمع^(٧٩) من صوب خالق العباد نداء (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك

٧٨-الأفضل على ما كان.

٧٩-يسمع

راضية مرضية) ^(٨٠) الذي هو مرسوم ومجزوم بين الخلايق في عالم الكون والفساد، فعندما سمعه بسمع الاجابة، وطار طائر روحه من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح، أخره الله تعالى، وسوقه بالفلاح والنجاح، فليقلد فيها أخوه المبجل خلف الأمراء العظام، شرف الكبراء الفخام، لازم الاكرام، ذو القدر والإحترام، حاوى الوفاء والمفاخر، جامع صنوف المأثر، شهاب الدين خان أبو النقا، زيد علوه وسموه، وليتعوض تلك الولاية إلى تحت تصرفه في ذلك الوقت، لينصرف فيها بطريق الايالة مثل ما كان في تصرف أخيه المشار إليه بالأصالة في زمان حيويته وبقائه، كما شرح طريق استبقائه لكونه مجبولا على الوفاء في عهده واستيفاء وفائه، إلى تصرف الأقدم المستحق الذي يوجد بعده وعقبه من الأبناء الكرام، والأعقاب الفخام بجلال الدين مراد خان المشار إليه، وتعود إلى سلسلة المسلسل نسلا بعد نسل، فرعا بعد أصل، ثم فثم، إلى أن ينقرض، ويتم صانهم الله الملك الستار إلى انقراض الدهور والاعصار، وصارت تلك الايالة في ايديهم بهذا الوجه الوجيه، وتلك الطريقة المرضية، ولا يخرجوا من هذه السلسلة بالمشية الالهية، وعون الحق ومنه، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين، ولا زال مرسومنا هذا مطاعا إلى يوم الدين، وما أوصينا به مع الضوابط المشروحة، والشرايط المذكورة معتبرة ومرعية، ومجراة في جميع الألوان، ولا يتغير ولا يتبدل الزمان أبد الأبدين، ولا يكون فرد من جواهر اصداق الخلافة، أعني بهم الأولاد الأمجاد، والأعقاب والأنساب، ولا واحد مقلدا بامر واخافة من الوزراء والأمراء والصدور والأركان والأعيان والكبراء، وغيرهم من الاحاد ومن أرباب الآداب، وسائر النواب والحجاب، وغيرهم من أهل العساكر والأعوان، والنواصر وعامة الأعلى والأسفل، في الخارج والداخل، كائنا من كان، مانعا ودافعا كيف ما كان، ومنازعا

ورافعا في هذا بوجه من الوجوه، بسبب من الأسباب، ولا يكونوا مجادلين ومخاصمين، ولا مزاحمين ومقاسمين، ولا يتعرضوا للبلاد ولا لأهاليها، وقطانها من كافة العباد، على خلاف الشرع القويم، ومخالف الطريق المستقيم، المعتاد بنوع من الأنواع، بل لا بد لهم ولكافة الأنام، من الخواص والعوام، صيانة تلك الولاية والنواحى من العاهات والدواهي، والرعاية لعامة الرعية وقطانها، والحماية لكافة البرية وسكانها، اعتقادا على أنها صارت في حكم ممالكنا، وجازما بأن أهلها كذلك، ومسالكها كمسالكنا المحمية، وما عرض من قضية تعرض المتعرضين المفسدين الكاذبين الباغين المتمردين، دمرهم الله إلى يوم الدين، المسافرين الواردين من تلك الولاية، من طريق التجار العابرين الذاهبين، ولسفائينهم ومراكبهم، وينهب أموالهم وكسر ما لهم، بل باراقة دمائهم وقطع أرجائهم، على خلاف رضائنا الشريف الخاقاني، وما يلزم ويتحتم ويجب قطع أيدي تعرضهم، بدفعهم ورفعهم، وقلعهم وقمعهم، وتدارك ضبطهم، وتدبير دفعهم وقلعهم من أهم المهمات، واتم المقتضات، فلا نرضى بالتأخير في التدارك والتدبير، ومرسومنا هذا لهذا الأمر الخطير، فلا بد على رقاب حراس الممالك ان يدفعوه، ويستعجلوا في دفعه، ويسلكوا فيه أوضح المسالك، حتى يسير عامة الرعايا وكافة البرايا، في أيام دولتنا وكنف عدالتنا، على كمال الأمن والأمان، والرفاهية والإطمينان، فإذا وقع مثل ذلك فلا بد من دفعه لكل من يقدر على دفعه، ثم اعلام المتورد، وعرض من لا يمتنع بالمنع عن المفاسد، ولا بد أن يكون هذا عادة مستمرة، وضابطة مستقرة، وفق أمرنا إلى يوم الجزاء، إن شاء الله تعالى. ومن قصد التبديل والتحويل، وخالف وعاند في أمرنا العامل الجليل، فالله خصمه (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) ^(٨١) فيكون مجرما وآثما بموجب النص الكريم (فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله

سميع عليم)^(٨٢) وينخرط في سلك الظالمين الأخسرين، الذين قال في حقهم عز من قائل (ألا لعنة الله على الظالمين)^(٨٣) ومرسومنا في هذا الكتاب المستطاب، يؤكد في ذلك الباب غاية التأكيد والتمهيد، فليعلموا ذلك وليعتمدوا عليه، فلما أدى الرسول المشار إليه خدمة رسالته المفوضة إليه بلسانه، وأتمها بطريق بيانه، قارن به حسن إجازتنا الشريفة الخاقانية بالتفخيم في خصوص الرجوع بالتكريم، وحملناه بكتابنا هذا الإتمام والوف السلام، لا زالت سلامته وحسنت بالخير إعادته، ولم يزل المراسلات والمفاوضات بإهداء الرسائل المشحونة بأخبار المحبة، وإنهاء الوسائل المقرونة بإظهار الصداقة والمودة، وإعلام عامة الأحوال المتعلقة بحفظ البلاد وانتظام العباد، وسائر جمهور الأمور المتعلقة بالسلطنة، وحراسة الممالك، وضبط المسالك، والحمد لله الملك العلام على رسوله [كذا] محمد سيد الأنام، وعلى آله العظام، وأصحابه الكرام.

محتويات الرسالة:

هناك العديد من الموضوعات التي تناولتها الرسالة:

أولاً: تفيد هذه الرسالة بأن مراد خان، حاكم البحرين، قام بإرسال أحد رجاله وهو الخواجة شرف الدين حسن بن أيوب حاملاً رسالة منه للسلطان سليمان القانوني، عاشر سلاطين الدولة العثمانية، يعبر فيها عن تقديم ولائه وإخلاصه للدولة العثمانية^(٨٤)، وهذا هو الدافع الذي أدى إلى صدور مثل هذه الرسالة - موضوع البحث -، كما تفيد هذه الرسالة أن هناك العديد من الأخبار قد نقلها الرسول شفاهة للسلطان^(٨٥).

٨٢- سورة البقرة آية: ١٨١

٨٣- سورة هود، آية: ١٨

٨٤- يظهر هذا الكلام واضحاً في عبارة: «... معتقداً وجازماً بأن الرسائل أقدم ذوي الحاجات، والوسائل ومفاتيح الطلبات، ومعتمداً على منبع حرمانا، وراجياً وسعي كرمنا وإن كل من التجأ إلى حرماننا لحماه حماه ... (انظر: فريدون بك، المصدر السابق ص ٦١٠)

٨٥- المصدر السابق، ص ٦١٠، ٦١٢

ثانيا: تقول الرسالة بعد ورود حامل الرسالة إلى استانبول، قرر السلطان العثماني أن يعين مراد خان أميرا على جزيرة البحرين، والجدير بالذكر أن السلطان لم يستخدم لقب سنجاق (أي إمارة أو لواء) وإنما استخدم لقب ولاية البحرين، ولم يقصد السلطان هنا الولاية بمفهومها الإداري كإحدى التقسيمات الإدارية في الدولة العثمانية، وإنما استخدم هذا اللفظ هنا فقط كنوع من المبالغة في منح مراد ريس إمارة ما، ومما يدعم هذا الرأي أن اللقب الذي منحه السلطان لمراد خان هو الأمير^(٨٦)، وهو لقب يدل على أن صاحبه يحمل لقب بك باللغة العثمانية وبهذا صار مراد أميرا على منطقة أو سنجاق ما، أما إذا كانت البحرين ولاية بمفهومها الإداري، فما كان مراد خان يحمل لقب أمير وإنما لقب بك (أي أمير الأمراء) وهذا الأخير كان يحمل لقب باشا، واللقب الأخير لم يظهر ضمن ألقاب مراد خان، كما أن هناك وثائق عثمانية أخرى دلت دلالة واضحة وصریحة على أن السلطان العثماني قد عين مراد سنجاق بك على جزيرة البحرين^(٨٧).

كان من سياسة العثمانيين أنهم إذا فتحوا أي منطقة عنوة فإنهم يعينون حاكما من جانبهم على المنطقة المفتوحة والأمثلة على ذلك كثيرة من المنطقة العربية كالموصل وبلاد الشام، ومصر وبغداد والإحساء، ولتأكيد ذلك كانت السلطات العثمانية تعين عليها ولاية عثمانيين وتضع حاميات عثمانية في هذه المناطق نظرا لأهميتها الجغرافية والاستراتيجية.

كما كان من عادة سلاطين الدولة العثمانية أن يقدرُوا جميع من ينضم تحت لوائهم سلما، وذلك بتعيينهم حكاما على مناطقهم التي يحكمونها، ومن أمثلة ذلك تعيين السلطان العثماني سليم الأول الشريف بركات على الحجاز بعدما أرسل

٨٦- المصدر السابق، ص ٦١١

٨٧- انظر على سبيل المثال مهمة دفترى رقم ٣، ص ١٣٩ وثيقة رقم ١ و ص ١٤٠ وثيقة رقم ١

الأخير ابنه أبو نمي لتسليم السلطان مفاتيح الحرمين الشريفين أثناء تواجده في القاهرة^(٨٨). وعندما دخل السلطان سليمان القانوني مدينة بغداد عام ٩٤١ هـ / ١٥٣٤م، أرسل راشد بن مقامس حاكم البصرة^(٨٩) ابنه مانع ليعلن قبول والده التبعية العثمانية، فعين السلطان راشد بن مقامس حاكماً على البصرة، وحدث نفس الشيء مع علي بن عليان حاكم منطقة الأهوار، ولكن عندما أعلن راشد بن مقامس عصيانه على الدولة العثمانية في عام ٩٥٣ هـ / ١٥٤٦م، أرسلت الدولة إياس باشا والي بغداد، على رأس حملة عسكرية لردعه، فدخل البصرة وعين بلال محمد باشا محافظاً عليها، وبعدها تحولت البصرة إلى درجة إيالة ومنحت لبلال محمد باشا^(٩٠).

وبما أن جزيرة البحرين قد دخلت سلماً تحت النفوذ العثماني فإن ذلك حال دون إقامة أي حاميات في البحرين، كما أن هناك عوائق أخرى منعت العثمانيين من إحكام سيطرتهم على الجزيرة وهذه تتخلص في العوائق الجغرافية حيث إن البحرين جزيرة مفصولة عن شبه الجزيرة العربية، وهذا كان يتطلب إيجاد أسطول عثماني فعال لنقل الجنود والأسلحة العثمانية للجزيرة، وكانت الدولة العثمانية تفتقر لمثل هذا الأسطول في بدايات النصف الثاني من القرن السادس عشر عندما بدأت القوات العثمانية تظهر في المنطقة. كما أن قرب الجزيرة من هرمز التي كانت قاعده البرتغاليين في الخليج العربي، جعلها حريصة على ألا تحاول أن تستفزهم، أو أن تقوم بأي عمل قد يفسره البرتغاليون على أنه موجه ضدهم، وهذا جعلها تتحرك في المنطقة بحذر شديد، ولا سيما أن البرتغاليين كانوا يمتلكون أسطولا بحرياً قوياً.

ثالثاً: نظم السلطان العثماني طريقه إدارة إمارة البحرين، فقد صرحت

٨٨ - قطب الدين النهروالي، البرق البهاني في الفتح العثماني، تحقيق حمد الجاسر، (الرياض، ١٩٦٧)، ص ٢٤

٨٩ - ابن القملاص، ولاية البصرة ومتسلموها ١٤ - ١٣٣٣ هـ (القاهرة، ١٩٦١) ص ٥٥

٩٠ - OZBARAN, OTTOMAN TURKS, P33

الرسالة بأن مراد يتصرف بإمارة البحرين، وتبقى في يده طيلة فترة حياته، أما في حالة وفاته، فتنتقل الإمارة إلى أخيه شهاب الدين أبو النقاء، وتستمر في يده لحين وفاته، عندها تنتقل الإمارة إلى ابن مراد خان، وتذهب بعده إلى ابن شهاب الدين وهكذا نسلا بعد نسل^(٩١).

وبما أن هذه هي الرسالة الوحيدة التي تحدث فيها السلطان العثماني حول إدارة منطقة ما دخلت حديثا تحت النفوذ العثماني، لذا فإنه من الممكن الافتراض بأن هذا كان دأب السلاطين العثمانيين مع المناطق الجديدة التي تدخل سلما تحت النفوذ العثماني، لأنه إذا لم يعتد السلطان ذلك لما أصر على هذه النقطة في هذه الرسالة الأولى من نوعها لحاكم البحرين، وربما أراد السلطان من ذلك الحد من قيام نزاعات داخلية بين البيت الحاكم في جزيرة البحرين، لكي لا يחדش ذلك أمن واستقرار الرعايا، وحتى لا يتخذ البرتغاليون من ذلك ذريعة للتدخل في شؤون البحرين لصالح أحد المتنازعين على السلطة.

رابعا: يوصي السلطان رجال الحكم في جزيرة البحرين بضرورة التفاهم في كل شيء، وحذرهم من الفرقة والتخاصم، ومن التعرض للبلاد وللأهالي، وبعدم أخذ أي شيء منهم يخالف ما شرع به الشرع الحنيف، وطلب من كبار الموظفين ضرورة صيانة الجزيرة من الأخطار، ورعاية الرعية وحمايتهم مما يحقد بهم، لأنها صارت من ممالك السلطان، وأن أهلها قد دخلوا في رعايته^(٩٢).

خامسا: حذر السلطان من أعمال السرقة التي كان يقوم بها بعض المفسدين، الذين كانوا يتعرضون للتجار العابرين، ولسفنهم العاملة في المنطقة، ويستولون على أموالهم وبضاعتهم، وطالب الموظفين بقطع أيديهم، ومنعهم من

٩١ - فريدون بك، المصدر السابق، ص ٦١١

٩٢ - المصدر السابق، ص ٦١١ - ٦١٢

القيام بمثل تلك الأعمال، وقال بأن منع ذلك من أهم المهمات والواجبات، ولا ينبغي التأخير في تطبيق المرسوم على أولئك المفسدين، من أجل أن يكون عامة الرعايا في أيام دولة السلطان في كنف عدالته، وعلى كمال الأمن والأمان، ولا يחדش اطمئنانهم وأمانهم أي شيء مهما صغر أو كبر (٩٣).

سادسا: شدد السلطان على تنفيذ ما جاء في هذا المرسوم، وحذر من يخالفه بأنه ينخرط في سلك الظالمين، الذين يسمعون ما يقال لهم ثم يخالفونه، وأولئك يلعنهم الله ويخرجهم من رحمته (٩٤).

سابعا: وفي آخر الرسالة أخبر السلطان بأنه بعد أن سمع الأخبار التي جاء بها الرسول، أعطاه هذه الرسالة الجوابية، ليحملها الى سيده مراد خان، وأوصى السلطان في آخر مرسومه بضرورة استمرار المراسلة لنقل الأخبار إليه، ولأنها وسيلة إظهار الصداقة والمودة، ولإعلامه بعموم الأحوال المتعلقة بالمنطقة ورعاياها، وختم السلطان رسالته بحمد الله والصلاة والسلام على نبيه وآله العظام وصحبه الكرام (٩٥).

٩٣ - المصدر السابق، ص ٦١٢

٩٤ - فريدون بك، المصدر السابق، ص ٦١٢

٩٥ - المصدر السابق، ص ٦١٢